وَرَقة مِن تَاريخ الاستشراق في المانيا:

إينو ليتمان (١٨٧٥-١٩٥٨)

بقلم رودي باريت

فى عام ١٩٥٨ ذكرت الصحافة والاذاعة فى كثير من التقدير رجلين شهيرين من أولدنبورغ مرات عديدة: وهما استاذ الفلسفة فى جامعة بازل كارل ياسپرز Karl Jaspers(١)، الذى بلغ آنذاك الخامسة والسبعين عندما منح جائزة السلام لهيأة تجارة الكتب الألمانية، واستاذ اللغات الشرقية فى جامعة توبنجن إينو ليتمان عندما وافته المنية عن اثنين وثمانين عاماً فى الرابع من مايو من ذلك العام. وقد غرس العالمان بشخصيتهما وأعمالهما قطعة من طبيعة ألمانيا السفلى فى الجنوب الغربى من البقاع الناطقة بالألمانية وجعلاها تشع على العالم كله من وطنهما الجديد. وكان كلاهما، رغم اختلاف وجهات نظرهما تماماً، يسعيان طيلة حياتهما إلى إدراك ماهو حقيقى واقع وإلى الاعتراف به فى واقعه هذا.

ولد إينو ليتمان فى السادس عشر من سبتمبر عام ١٨٧٥ لصاحب مطبعة فى اولدنبورغ. أما أمه فقد انحدرت من اسرة ألمانية فريزية. وفى مدينة أولدنبورغ نفسها قضى مع اخوته واخواته التسعة فترة شبابه الأولى. وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والثانوية وألم بالعبرية ومبادئ الإيطالية والعربية والسريانية والفارسية وتعلم الألمانية السفلى على يد عم له كان يعيش فى الريف، التحق فى الأعوام ما بين ١٨٩٥ و١٨٩٨ بجامعات برلين وكرايفزڤالد وهاله. وكان من اساتذته العالم بالعهد القديم إميل كاوتش Emil Kautzsch(٢)، والمؤرخ ادوارد ماير E. Meyer(٣)، واستاذ اللغات الألمانية أوتو بريمر Otto Bremer(٤)، وكان بينهم من المستشرقين استاذ اللغة الحبشية آوغست ديلمان August Dillmann(٥)، وفرانتز بريتوريوس Franz Praetorius(٦)، الخبير فى حقل علم اللغة الحبشية وقراءة النقوش السامية والنحو والوزن الشعرى العبرى، وأخيراً جيورج ياكوب Georg Jacob(٧)، واحد من اكثر ممثلى الاستشراق تعدداً فى الاهتمامات وخصوبة فى الأفكار واستقلالا فى الشخصية. وكان حب الطالب الشاب من نصيب اللغات الشرقية بوجه خاص. ولكن بما أن الاستشراق وحده لم يكن آنذاك أيضاً ليفتح المجال لمستقبل مضمون فقد اختار علم اللاهوت كفرع مهنى. وفى ربيع عام ١٨٩٨ اجتاز فى جامعة هاله امتحان التعليم الثانوى بمادتى اللاهوت والعبرية كفرعين رئيسيين، والألمانية واللاتينية والانجليزية كفروع ثانوية. ثم تقدم فى صيف العام نفسه لأداء الامتحان النهائى الوحيد فى الدراسات الشرقية وهو امتحان الدكتوراة فى الفلسفة استناداً إلى أطروحة حول الفعل فى اللغة التكرية. وفى شتاء ١٨٩٨/١٨٩٩ قضى ليتمان فصلا دراسياً إضافياً فى جامعة ستراسبورغ لدى المستشرق الأصيل الألمعى والعالمى فى الوقت نفسه تيودور نولدكه Theodor Noeldeke(٨)، جد زوجته فيما بعد.

وفى هاله تصادق مع الأمريكى الشاب W. K. Prentice(٩)، وهو طالب كان يدرس اللغات الكلاسيكية. ومن هذه الصداقة نشأت علاقة متينة بجامعة برنستون. وحصل على فرصة ثمينة وهى الالتحاق بعضوية حملة استكشافية أثرية لهذه الجامعة نفسها من ١٨٩٩ الى ١٩٠٠ فى اول رحلة أبحاث إلى سوريا وفلسطين. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحاضر فى برنستون، وفى عام ١٩٠٤ أوفد من هناك للمرة الثانية فى حملة استكشافية أمريكية إلى اثيوبيا، لكنه لم يمكث فيها حتى النهاية، إذ حصل من برلين أثناء طريقه فى تلك الرحلة على أمر مشرف وهو أن يترأس حملة استكشافية ألمانية برعاية الامبراطور ڤيلهلم الثانى إلى أكسوم.

وبينما مكث ليتمان فى اثيوبيا كرئيس لحملة اكسوم الألمانية هذه حصل عام ١٩٠٦ على استدعاء من جامعة ستراسبورغ ليشغل كرسى الدراسات الشرقية كخلف لاستاذه الذى احيل على التقاعد، تيودور نولدكه. ولبى هذا الاستدعاء بكل بهجة وانهى بذلك شطراً من حياته ملئ بالرحلات الاستكشافية. ومن عام ١٩٠٦ حتى تقاعده

عام ١٩٥١ ظل يعمل استاذاً نظامياً للدراسات الشرقية فى الجامعات الألمانية. وحتى عام ١٩١٤ ظل يدرس فى ستراسبورغ — مع فترتى انقطاع قضى الأولى منهما وهو يحاضر فى جامعة القاهرة الحديثة آنذاك، والثانية فى تركيا لحل رموز النقوش الليدية التى وجدت فى ساردس — وعمل من ١٩١٤ حتى ١٩١٦ كخلف لڤلهاوزن J. Wellhausen[١٠]، فى غوتنجن، ومن ١٩١٨ حتى ١٩٢١ كخلف لبيكر C. H. Becker[١١] فى بون، وابتداء من ١٩٢١ كخلف لزايبولد Chr. Fr. Seybold[١٢] فى توبنجن.

ومن جامعة توبنجن كان يمضى عدة مرات خلال الحربين إلى القاهرة والاسكندرية لالقاء محاضرات علمية وللاشتراك فى جلسات المجمع اللغوى فى القاهرة. ولكن وطنه الثانى ظل تلك المدينة الجامعية السوابية. وقد رفض أثناء عمله عروض من جامعات برلين وهايدلبرغ وميونيخ وبالتيمور و غوتنجن.

وكان اتجاهه الاختصاصى ضمن حقل الاستشراق الواسع نتيجة موهبة لغوية فردية هذبت منذ الصغر، وتأثير متواصل عميق الأثر من اساتذته المستشرقين ديلمان وبريتوريوس ونولدكه. وقد حدد هذا الاتجاه اكثر بعد إنهاء دراسته بفضل رحلاته الاستكشافية وما نجم عنها من مهمات ووجهات نظر خاصة. وقد تركز اهتمامه وجهده العلمى على فك رموز النقوش السامية. وكان يعمل بلا هوادة وفى دقة متناهية على حل النقوش التدمرية والنبطية والسريانية والعبرية والعربية والاثيوبية وشرحها. وقد عمل بخبرة متناهية كذلك على حل النقوش السبئية واليونانية واللاتينية والليدية وتفسيرها. ومن اهتماماته العلمية الكبيرة أيضاً حقل اللغات الحبشية الواسع الذى لم يتطرق إليه إلا القليلون. فبالإضافة إلى اهتمامه بالاثيوبية وهى اللغة الكلاسيكية اتجه إلى البحث فى اللغة الامهارية الحديثة وكذلك فى لغة غالا، والهررى وتيجرينيا وخاصة لغة تيجرى. ولم يقتصر فى ذلك على الحقل اللغوى البحت، بل عالج كذلك مسائل الوزن الشعرى والأدب («فن شعر الغالا» و«تاريخ الادب الاثيوبى») وأوضاع اثيوبيا الحديثة على اختلاف انواعها. وقد اهتم بوجه خاص بجمع الاشعار الشعبية والمواد الفولكلورية بوجه عام من البلاد التى كان يزورها أى من البقاع الناطقة بالحبشية والعربية، كما كان مهتماً بتقديم هذه المواد للقراء عن طريق ترجمتها ما وسعه ذلك. وهنا يكمن جانب هام آخر من جوانب نشاطه العلمى. فنحن مدينون إلى ولعه الشديد بالجمع والنشر فيما نملك اليوم من عدد كبير من النصوص العامية، العربية والحبشية،



Enno Littmann.

اينو ليتمان.
نشكر السيدة إلزا ليتمان بتوبنجن لإرسالها الينا هذه الصورة.

فى اللغات الأصلية أو بصيغ مترجمة. كما أن ترجمة ألف ليلة وليلة فى مجلداتها الست وفى لغة دقيقة واسلوب فنى رائع، يمكن كذلك أن تنسب إلى حقل اهتمامه وعمله هذا.

وإلى جانب كل ذلك فهناك عدد كبير من الحقول الجانبية التى أجرى ليتمان فيها بحوثاً علمية: كالعهدين القديم والحديث والاسلام واللغة التركية ولغة الغجر والألمانية السفلى وغير ذلك كثير. وإن فهرس المؤلفات الواسع الذى أعده انتون شال Anton Schall[١٣] والذى نشر عام ١٩٥٥ فى المؤلف التذكارى «قرن من الاستشراق» بمناسبة العيد الثمانين للمستشرق الكبير ليشير إلى اتساع وعمق انتاجه العلمى. فكثيراً ما تحتوى متنوعاته الصغيرة معارف وتفسيرات لغوية هامة. وقد أفاد كثيراً وبوجه خاص فيما كان ينقده من الكتب بأسلوب واضح متحفظ نقاد. وأخيراً،

لا بد أن نذكر فى هذا الخصوص ايضاً عمله كمشرف على إصدار الفهرس الحبشى Bibliotheca Abessinica (من ١٩٠٤ حتى ١٩١١) ومجلة الدراسات السامية (من ١٩٢٢ حتى ١٩٣٤).

إن الكتب والمقالات التى ألفها ونشرها ليتمان خلال حياته المديدة ستخلد وتثمر فى الدوائر المختصة وغيرها أيضاً. ولكن صورة هذا العالم الكبير لن تتم إذا نسينا فيه الإنسان الحيوى النشيط. إذ لم يكن استاذ اللغات الشرقية فى توبنجن عالماً جافاً. بل إنه كان يتمتع بموهبة نادرة وهى قدرته على تمثيل النوادر والتجارب والمواقف التى شهدها أثناء ترحاله وتجواله بأسلوب تمثيلى بارع، وإعادتها من الذاكرة فى تصوير يكاد يشبه الحقيقة. وكان يسبغ بذلك جواً من الانفراج والمرح على طلابه وينقلهم بطريقة مسلية إلى أوساط شرقية خالصة. وكان فى الأحاديث الخاصة سيداً فى رواية النوادر والملح وفى تقليد اللهجات بفضل مواهبه اللغوية النادرة. وكان يحب العشرة المرحة الطبيعية بوجه عام، وخاصة فى الندوات الصغيرة. وكانت تربطه أواصر الصداقة بعدد كبير من الرجال حتى بعد فترة عزوبته. وبعد زواجه واصل عشرة أصدقائه فى إطار الأسرة، وراح يستقبل الزائرين القادمين من قريب وبعيد فى منزله الجميل فى شارع موريكه ويستضيفهم على الرحب والسعة. وكانت تروى الأقاصيص والأحاديث الذكية فى الأمسيات الطويلة أثناء تدخين الغليون أو السيجار واحتساء كأس من الخمر.

ولم يكن ليتمان يهوى الإفراط فى الكد. وكان متحفظاً فى الأمور الشخصية ويكاد يكون خجولا إزاءها. ولم يكن يتحدث كثيراً عما كان يثيره فى أعماق نفسه. ولكن طبيعته الأصيلة كانت تشع بوضوح لا غموض فيه جواً من الصفاء والجلال. وفى كثير من طيب العنصر وحب المساعدة والمسالمة والتواضع على غير جهل بقدره الحقيقى، أصبح المستشار السرى البروسى، ذو القامة المديدة والرأس الذى يشع تعبيراً وفكراً ثاقباً، أصبح مع مرور الأعوام والأجيال السيد الجليل الحقيقى للاستشراق الألمانى. وقد تعرف أثناء رحلاته الكثيرة على عدد كبير من البشر فى الشرق أيضاً. وبفضل قدرته على محادثة أهل البلاد بلغتهم الأصلية، وبفضل اهتمامه العلمى والانسانى بأعمالهم ومشاغلهم لم يكسب احترامهم واعجابهم الشديدين فحسب، بل ونال حبهم وصداقتهم أيضاً.

وخلافاً لمواطنه ياسپرز، لم يكن ليتمان يهتم بالفلسفة. كما أن القضايا اللاهوتية لم تثر اهتمامه رغم دراسته اللاهوتية. ويمكن اعتباره بشئ من التحفظ ابناً متأخراً من ابناء عهد التنوير العقلى وتابعاً من اتباع المذهب الوضعى. وكان دافع المعرفة العلمية لديه يشق من حيث المبدأ سبيل الطريقة الاستقرائية. وكان يهتم بالدرجة الأولى بالحقائق القائمة سواء كانت نقوشاً أم أشكالا لغوية أم مواد فولكلورية. فكان يسعى إلى ايضاحها وتفسيرها متجنباً بقدر ما وسعه أن يضيع فى التأملات التاريخية الفكرية. ولذا فانه لم يكن كذلك مؤرخا حقيقياً رغم إعجابه الشديد فى سنوات دراسته بإدوارد ماير ويوليوس ڤلهاوزن فيما بعد. وحتى فى حقل أبحاثه الخاص قلما وجد نفسه مستعداً لتقديم ابحاث تركيبية شاملة. ولم يتمكن من تنفيذ مشروعه الذى اعلن عنه طويلا وهو تأليف كتاب فى قواعد اللغة الاثيوبية. ولكن بسبب طريقة عمله الحذرة والهادفة إلى إيضاح الحقائق والمتون وتفسيرها ظلت نتائج أبحاثه صامدة أمام النقد والطعن.

وبسبب الانجازات الكبيرة التى حققها إينو ليتمان تجاوز تقديره وشهرته حدود ألمانيا وتعداها إلى الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة والشرق الأدنى. وكان يحمل درجة الدكتوراه الفخرية فى اللاهوت من جامعة هاله، والدكتوراه الفخرية فى الفلسفة من جامعة القاهرة، وكان عضواً فى المجامع العلمية فى برلين وغوتنجن وماينز وأمستردام وبروكسل والقاهرة وكوبنهاجن وباريس وروما، كما كان عضواً فخرياً فى الاكاديمية العلمية فى ڤيينا، والرئيس الأول ثم العضو الفخرى لجمعية المستشرقين الألمانية، وكان فارس مرتبة السلام فى نظام pour le mérite وحائزاً على اوسمة أجنبية رفيعة. ومن الطبيعى أن هذه الأمجاد لم تلق فى نفسه الرفض، ولكنه كان يتلقاها بالتواضع المعروف عنه، ولم يحاول أن يتباهى بها قط. وكانت رغبته الأخيرة أيضاً أنه يود حين سيحين الأجل أن يغادر العالم والحياة بهدوء، تماماً كما جاءهما بهدوء. وقد تمت مراسيم إحراق جسده ومباركته فى أضيق دائرة من أفراد عائلته وبعض أصدقاء الأسرة. وبسيرة بسيطة مختصرة كان قد كتبها بنفسه لهذه المناسبة، وقد قرئت فى هذا الاحتفال الجنازى العائلى الضيق، تكلم بطبيعته المتكاملة المتناسقة لآخر مرة. إن هذا العالم العظيم ليستحق الخلود ببساطة ودون تزوير فى ذاكرة جميع من تعلموا منه، ومن كانوا مقربين إليه، ومن قدروه وأجلوه.

ترجمة: محمد على حشيشو

١) كارل ياسبرز (Karl Jaspers): فيلسوف معاصر ولد فى ١٨٨٣/٢/٢٣ فى اولدنبورغ، وأصبح استاذاً فى هايدلبرغ وبازل. وبدأ حياته كطبيب نفسى، وما لبث أن أصبح مع هايدجر مؤسس الفلسفة الوجودية.

٢) إميل كاوتش (Emil Kautzsch): عالم لاهوتى بروتستانتى ولد عام ١٨٤١ فى پلاون وتوفى عام ١٩١٠ فى هاله. واصبح استاذ العهد القديم فى بازل عام ١٨٧٢، وفى توبنجن عام ١٨٨٠ وفى هاله عام ١٨٨٨.

٣) إدوارد ماير (E. Meyer): مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و١٩٣٠.

٤) أوتو بريمر (Otto Bremer): من علماء اللغة الألمانية ولد فى شترالزوند عام ١٨٦٢ وأصبح استاذاً للغة الألمانية فى هاله عام ١٩٠٥.

٥) آوغست ديلمان (August Dillmann): مستشرق وعالم لاهوتى بروتستانتى. ولد فى ولاية ڤورتنبرغ بألمانيا فى ١٨٢٣ وتوفى فى برلين عام ١٨٩٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً فى كيل، وعام ١٨٦٤ فى غيسن، وعام ١٨٦٩ فى برلين. برز فى أبحاثه فى اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

٦) فرانتز بريتوريوس (Franz Praetorius): عالم باللغات السامية ولد فى برلين عام ١٨٤٧ وتوفى فى بريسلاو عام ١٩٢٧. أصبح استاذاً فى بريسلاو عام ١٨٨٠ وفى هاله عام ١٨٩٣. وقد نشر ابحاثا علمية تتناول اللغة الحبشية وتفسير النقوش السامية وقواعد اللغة العبرية وأوزانها الشعرية.

٧) جيورج ياكوب (Georg Jakob): مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام، ولد عام ١٨٦٢ وتوفى عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية فى جامعة كيل واهتم خاصة بدراسة التصوف واصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل فى الشرق والغرب (انظر فكر وفن، العدد ١١).

٨) تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke): بشأن هذا المستشرق الكبير راجع المقالة المنشورة فى فكر وفن، العدد ٩، الصفحة ٣٣.

٩) و. ك. پرينتس (W. K. Prentice): عالم اميركى، اختصائى فى اللغات الكلاسيكية، ولد عام ١٨٧١.

١٠) يوليوس ڤلهاوزن (J. Wellhausen): مستشرق وعالم لاهوت پروتستانتى، ولد فى هاملن عام ١٨٤٤ وتوفى فى جوتنجن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم فى القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت فى غرايفزڤالد عام ١٨٧٢، واستاذا اللغات الشرقية فى هاله عام ١٨٨٢، ثم فى ماربورغ عام ١٨٨٥، وفى جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة فى اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف فى الأناجيل آثاراً ذات اصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الإسلام فقد شرح ڤلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدى للفترة الإسلامية الأولى فى كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها»، كما ألف أيضا كتاب الأحزاب الدينية السياسية المعارضة فى بواكر عهد الاسلام. (انظر فكر وفن، العدد ١٣)

١١) كارل هاينرش بيكر (Carl Heinrich Becker): مستشرق وسياسى بروسى، ولد فى امستردام عام ١٨٧٦ وتوفى فى برلين عام ١٩٣٣. وقد عمل استاذاً فى هايدلبرغ وهامبورغ وبون وبرلين. وعمل منذ عام ١٩١٦ فى وزارة الثقافة البروسية وأصبح من عام ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ وزيرا للثقافة. ومن أعماله كوزير للثقافة إصلاح نظم التعليم الجامعى وتأسيس الأكاديميات التربوية واكاديمية الشعراء. ومن أهم مؤلفاته فى حقل الاستشراق «مقالات وبحوث فى تاريخ مصر فى العهد الإسلامى» (مجلدان، ١٩٠٢–١٩٠٣) و«دراسات إسلامية» (مجلدان، ١٩٢٤–١٩٣٢)، وتولى منذ عام ١٩١٠ إصدار مجلة «الإسلام» الألمانية المعروفة.

١٢) زايبولد (Chr. Fr. Seybold): ولد عام ١٨٥٩ وكان استاذ اللغات السامية فى جامعة توبنجن، وقد حقق ونشر آثار ابن أنبارى، كما أصدر القاموس اللاتينى – العربى وغير ذلك من المصنفات العربية الكلاسيكية. توفى عام ١٩٢١.

١٣) أنتون شال (Anton Schall): استاذ اللغات السامية وعلوم الاسلام فى جامعة هايدلبرغ ومن المستشرقين المعاصرين الألمان المعروفين. من مؤلفاته الهامة «دراسات حول المفردات اليونانية فى اللغة السريانية»، وكتاب «حول فن الشعر الاثيوبى».

الينو ليتمان استاذاً واباً

بقلم مراد كامل

قال الدكتور طه حسين فى حفل تأبين الاستاذ ليتمان بمجمع اللغة العربية: «وما أنسى فلن أنسى الاستاذ ليتمان حين لقيته فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين، فى مؤتمر ليبزج، وكنت ألقى حديثى فى هذا المؤتمر، وإذا الاستاذ ليتمان – وكان رئيس الجلسة فى ذلك اليوم – يبكى بكاء شديداً، كأنه تأثر أن يرى تلميذه يتحدث بين يدى هذا الجمع من العلماء المستشرقين الذين أقبلوا إلى هذا المؤتمر فى ليبزج.
كانت إذن بين ليتمان وبينى هذه المودة التى تكون بين الآباء والابناء».

ومن المعروف ان الدكتور طه حسين والمرحوم الاستاذ على عبد الرازق كانا من تلاميذ الاستاذ ليتمان فى الجامعة المصرية القديمة، والتى كان ليتمان عميداً لكلية الآداب بها فترة من الزمان، كما كان الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) مديراً لها.
والواقع أن ما أحس به طه حسين وعبر عنه بهذه الكلمات، وهو من الرعيل الأول من تلاميذ ليتمان، أحسسنا به نحن فيما بعد، ولمسناه من معاملة الاستاذ الأب.
كنا نحيط به فى منزله فى قاعة من قاعات مكتبته نستمع اليه يحاضرنا، يرعى كل منا بعطف خاص. وأذكر انى